عودة سعد من المنفى

ولنتأمل معاً سلوك المصريين عندما عاد سعدُ زغلولٍ لمصرَ في ٤ أبريل ١٩٢١ بعد نفيه الأول في مارس ١٩١٩ .. يصف المؤرخُ عبد الرحمن الرافعي , وهو أحد زعماء الحزب الوطني المشهورين بعداءهم لسعدٍ إستقبالَ الجماهيرِ لسعدِ زغلول يومذاك بقولِه : (وقوبل في الأسكندرية وفي الطريق منها إلى القاهرةِ وفي العاصمةِ بأعظمِ مظاهرِ الفرحِ والحماسةِ بحيث كانت مقابلته سلسلة لا نهاية لها من الزينات والمظاهراتِ والحفلاتِ والأفراحِ مما لا مثيل له في تاريخِ مصرَ الحديث) .

أما الدكتور محمد حسين هيكل أحد أبرز شخصياتِ الأحرارِ الدستوريين الأشد عداءاً لسعدِ زغلول فيقول في الجزءِ الأول من مذكراته : (وكان إستقبالُ سعد في ذلك اليوم منقطعَ النظير , فما أحسب فاتحاً من الفاتحيين ولا ملكاً من الملوك حظى بأعظم منه في أوجِ مجدهِ . خفت القاهرةُ كلُها : شبابُها وشيبُها , رجالهُا ونساؤها حتى المحجبات منهن , إلى الطرقات التي سيمر بها يحيونه ويهتفون باسمه هتافات تشق عنانَ السماء , وجاء إلى القاهرة من أقصى الأقاليم وأريافها ألوف وعشرات الألوف يشتركون في هذا الاستقبال الذي جمع بين رجالِ الحكمِ من وزراءٍ ووكلاءِ وزاراتٍ ومن دونهم ومن طبقاتِ الشعبِ المثقفةِ وغير المثقفة .

ورأى سعدٌ ذلك بعيني رأسِه , فوقف في سيارته التي سارت الهوينى من محطةِ القاهرة إلى داره يحيي بكلتي يديه هذه الجموع الزاخرة الهاتفة , المولية وجهَها إلى الرجلِ الذي إجتمعت فيه آمالُ الأمةِ كلِها) . ثم

يضيف الدكتور هيكل : (ترى .. أقُدَّر للأسكندر الأكبر أو لتيمورلنك أو لخالد بن الوليد أو لنابليون بونابرت أن يرى مشهداً أجلَ وأروعَ من هذا المشهدِ ؟ وماذا كان يجول بنفسِ سعدٍ وهو يرى هذا المنظر الرائع يمر أمامه وعيون الناسِ كلهم مشدودة إليه وأفئدتهم متعلقة به وقلوبهم ممتلئة بإكبارِه وإعظامِه ؟) .

أما المؤرخ الكبير أحمد شفيق (باشا) فإنه يصف لنا هذا المشهد التاريخي في الجزء الثاني من "الحوليات" فيقول : (لقد روى لنا التاريخ كثيراً من روايات القواد والملوك الذين يعودون إلى بلادِهم ظافرين , فيحتفل القومُ إحتفالاً باهراً بإستقبالِهم, ولكن لم يرو لنا التاريخ أن أمةً بأسرِها تحتفل برجلٍ منها إحتفالاً جمع بين العظمةِ غير المحدودة والجلال المتناهي لم يفترق فيه كبيرٌ عن صغيرٍ , إحتفالاً لا تقوى على إقامته بهذا النظام أكبرُ قوى الأرض لولا أن الأمةَ المصرية أرادت أن تأتي العالم بمعجزةٍ لم يعرف لها التاريخُ مثيلاً) .

أما أحمد حسين مؤسس حزب مصر الفتاة والذي رغم خلافه السياسي مع الوفد كان رجلاً كبيراً إتسم بالموضوعية البالغة في التأريخ عندما أفاض في تصوير عظمة شخصية وجهاد سعد زغلول الوطني في كتابه "موسوعة تاريخ مصر" معطياً إياه حقه الكامل كأعظمِ زعيمٍ في تاريخِ مصرَ الحديث , يكتب أحمدُ حسين في الجزء الخامس من هذه الموسوعة عن إستقبال سعد زغلول يومئذ فيقول : (وصل سعد زغلول باشا إلى القاهرة يوم ٤ أبريل . وفي ختام الجزء الرابع تحدثنا عن الإستقبالِ "الخُرافي" أو فلنقل الأسطوري الذي إستقبلت به مصرُ سعداً حكومةً وشعباً

, ولا غرابة في ذلك فقد كان إبرازُ هذه المشاعرِ وإتخاذها سعدَ زغلول رمزاً لها هو أسلوب الأمةِ في التعبيرِ عن إرادتِها, وقد إستمرت الإحتفالاتُ بعودةِ سعد زغلول تتجلى لعديدٍ من الأيامِ في الوفودِ التي هرعت من أنحاءِ البلادِ لتحيةِ سعدٍ ...

وإذا كان من نواميسِ الطبيعةِ أن يكون لكلِ فعلٍ ردَ فعلٍ , فلا بد أنه كان لهذا الإستقبال "الخُرافي" رد فعل في مختلفِ الأوساطِ المعاديةِ للشعبِ , وفي الشعب وفي نفس سعد زغلولٍ على السواء . فأما أعداءُ الشعبِ وعلى رأسهم إنجلترا فلا بد أن يكون الإستقبالُ قد أفزعها ورأت ما ينطوي عليه من معانٍ , حيث تضامن الشعبُ وتكتل خلف الرجل الذي أصبحت إنجلترا تعتبره خصماً لدوداً لها . ولا بد أن يكون السلطانُ أحمد فؤاد قد أفزعه بدوره أن يصبح في مصر إنسان بكل هذه القوةِ) .

أما عباسُ العقاد فإنه يصف لنا مشهدَ عودةِ سعد زغلول يوم ٤ أبريل ١٩٢١ فيتحدث في الفصل الثالث والثلاثين من كتابه "سعد زغلول – سيرة وتحية" فيقول : (ملك سعد ناصية الموقف من ساعة وصوله إلى شاطئ الإسكندرية , وثبت في عالمِ العيان لمن كان في شك من الأمر أن هذا الرجل أقوى قوة في سياسةِ مصرَ القومية , وأن كل إتفاقٍ بين مصر وإنجلترا يتم على الرغمِ من هذا الرجل أو مع إغفالِ شأنه وتهوين خطره مستحيلٌ) . (لقد كان اليوم الرابع من أبريل – يوم وصوله الإسكندرية – يوم الجيل بأسرهِ في العالمِ بأسرهِ , ولك أن تقول وأنت آمن من الغلو أن إستقبالَ سعد في ذلك اليوم وفي اليوم الذي بعده كان أفخمَ إستقبالٍ لرجل من الرجالِ في أوائل القرن العشرين , فقد إنتظمت مصرُ موكباً واحداً

للحفاوة به من شاطئ البحر بل من مدخل الميناء إلى عاصمة الديار المصرية وإرتفعت الزيناتُ وأقواسُ النصرِ من سُلَمِ الباخرةِ إلى حجرتِه في فندق "كلاردج" الذي نزل فيه , وكان الناظرُ لا يرى في كلِ مكانٍ إلاّ صورة سعد ولا يسمع إلا الهتافَ وأناشيدَ المترنمين بذكِره .

وإنقضى أسبوعٌ قبل وصولهِ والوفود تتزاحم على الإسكندرية من أقصى القطر إلى أقصاه حتى تعذر المبيتُ في الفنادقِ ولجأ الناسُ إلى البيوتِ يسألون أصحابَها أن يؤوهم إلى مكانٍ يسكنون إليه ريثما يحين اليومُ الموعود .

ولم تبق شرفةٌ في الطريق إلا غالى المستأجرون بثمنِ الوقفةِ فيها بضع ساعاتٍ حتى نيفت أجرةُ الشرفةِ على أُجرةِ البيتِ , وضاقت الطرقاتُ عن مسيرِ المركباتِ وأوشكت أن تضيق عن مسير الأقدام من مجاز لمجاز. ولما إستقل القطار من الإسكندرية إلى القاهرة تلاحقت الجموعُ على طولِ الطريقِ تأبى إلا أن تستوقفه مرات في غير مواضع الوقوف ومنهم من كانوا يترامون على القضبانِ في بعض القرى الصغيرة ليغتنموا لحظة من الوقتِ يقف فيها القطارُ ويطل فيها الزعيمُ على المستقبلين .

وخرج كل ُمستطيع الخروج في مدينةِ القاهرة إلى الطريق ما بين باب الحديد إلى بيتِ الأمةِ يرقبون الصباح ساعة قدوم الرئيس في نحو الخامسة من المساء فلما لاح لهم في سيارته نسوا أنفسهم أفراداً وذكروا أنفسهم قوماً واحداً لا إختلاف فيه بين صوت وصوت ولا بين دعاءٍ ودعاءٍ وبلغ من نسيان النفس وغلبة الوجدان على الإرادة أن أناساً كانوا يتسلقون

الأشجار والأسوار أرسلوا أيديهم يصفقون وهم لا يدرون أنهم معتـــصمون بتلك الأيدي من خطر الوقوع ... ولا خطر في الحقيقة من الوقوع حيث لا أرض في طول الطرق إلا وقد غشاها ألوف الواقفين) ...

كانت تلك بعض كلماتِ "العقاد" في وصف إستقبال الشعب المصري لسعد زغلول يوم الرابع من أبريل ١٩٢١ بعد كلمات "عبد الرحمن الرافعي" و"محمد حسين هيكل" و"أحمد شفيق " و"أحمد حسين" وكل منهم يروى مـــا عاصره ورآه لا ما حُكيَّ له أو تناقله الرواةُ .

ثم نتساءل هل كان سعد ملكَ مصرَ؟ .. أم رئيسَ جمهوريتها؟ .. أم رئيس وزارئها؟ .. أم وزيـــراً ؟؟ . والإجابة على كل تلك الأسئلة بالنفي : فلم يكن سعد ملكاً أو رئيساً ولم يكن رئيس حكومة ولم يكن وزيراً ولم يكن يشغل أي منصب رسمي عندما استقبله شعبُ مصرَ بهذا الاستقبال .

وهنا تكمن عبقرية سعد زغلول : فبدون سلطة , حيث كـــان رأس الدولة هو السلطان فؤاد ورئيس وزرائها هو عدلي يكن , وبدون مؤسسات رسمية تحشد المواطنين في الشوارع , وبدون وزير إعلام يـــسخر أدوات أجهزة الإعلام لتسليط الأضواء على وجه وإسم رئيسه , وفي ظل الوجـــود الحربي البريطاني المعادي لسعد زغلول والذي كان قد نفاه قبل سنتين إلى مالطة مما فجر ثورة ١٩١٩ , وبدون أي حول ولا طول إلا شخصية سعد زغلول العامرة بمؤهلات الزعامة الحقيقية , إستقبلت مصرُ سعداً كما لـــم تستقبل أحداً من قبله أو بعده ممن لاحظ لهم من "المناصب الفخيمة". وذلك

سر عبقرية هذه الزعامة التي نضجت بدون الإستناد على منصبٍ رفيعٍ تسخر له كل الوسائل والأجهزة .

وكم أود أن يُطالع شباب مصر كلمات الصحفي الكبير عبد القادر حمزة والتي يصف فيها عظمة سعد زغلول عندما ألقى الإنجليز القبض عليه للمرة الثانية يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٢١ ، وسعد زغلول يومذاك على مشارفِ السبعين من عمرهِ ...

يقول عبدُ القادر حمزة في كتابه "إذكروا سعداً" : (وما مضت دقيقتان أو ثلاث دقائق حتى ضج فجأة كل الذين حولي ، فإذا سعد مقبل وأمامه ضابطان ومن خلفهِ حاجبه وخادمه ؛ وهم جميعاً يمشون في نطاقٍ من الجنودِ . رأيته يمشي بعد أن نزع من أهلهِ وبيته وأحيطَ بالجندِ والسلاح وفتح أمامه باب التضحية على مصراعيه مجهول الأول مجهول ال آخر ، فأُقسمُ ما رأيت فيه وفي مشيته إلا بطلاً عالي الرأس مطمئن النظرات ... وودتُ أن رآه معي في تلك الساعةِ كلُ أبناءِ مصرَ .

إذن لرأوا سعدَ هم أسداً وهو أثبت ما يكون حين تنازله الحادثاتُ . كان يمشي هادئاً منبسط الجبين ليس في خطوه إسراع ولا تثاقل ولا في نظراتهِ ولا في حركاتِ جسمهِ أثر واحد يدل على قلقٍ أو إضطراب , ويده اليسرى في جيبِ معطفهِ ويده اليمنى تحرك عصاه حركةً عاديةً منتظمةً كأنه لا يرى لكل ما هو واقع ولا لكل الذين محتاطون به وجوداً أكثر من العدمِ . وما رأيته تلفت يميناً أو شمالاً).